حكمة الامتحان في الدنيا

سؤال: ما حكمة وجودنا في الدنيا وابتلائنا فيها، وهو سبحانه أعلم بما نحن فاعلون في هذه الدنيا وبما نمتثل له وما لا نمتثل من أوامر؟

الجواب: أجل، إنّ الله تعالى وهو يعلم ما نحن فاعلون في هذه الدنيا قد خلقنا فيها ليبتلينا وهذا يكشف ما عندنا من قابليات واستعدادات من خلال ما كُلِّفنا به، فالناس معادن، هكذا خلقهم الله، وثَمَّة في المعادن: النحاس والفحم والحديد والذهب والفضة.

هذا خلق الله، وهو ربُّنا الذي أحسن كل شيء خلَقَه، وله ﷻ أسماء تتجلى في آثاره، فهذا المعرض إنَّما أقامه ليظهر جماليات أسراره المكنونة ويعرض تلك الآثار المتنوعة أمام أنظار الخلق، فالفنّان -ولله المثل الأعلى- إذا كانت لديه مهارات وطاقات كثيرة من مثل الإنشاء والتشكيل وأراد أن يُعرف ويَظهر فسبيله إلى ذلك إنما هو أثره الفني.

وبتعبير آخَر نقول: إن الله تعالى يريد أن يُظهِر لنا كيف تتجلى أسماؤه الحسنى في معادن المخلوقات، وفيها الفحم والذهب والفضة، وكيف يستمر هذا التجلي فيما كان منها ذهبًا خالصًا أو فضّةً خالصةً، أو حديدًا عالجته يد الإنسان. فالله تعالى يُظهِر تجليات أسمائه بدرجات متفاوتة ومستويات متنوِّعة ليبصِّرنا كيف يصيّر الفحم من تلك المعادن ألماسًا

دفعـة واحدة، هكذا يعرّفنا بنفسـه سـبحانه، فيمنّ علينـا لنتعرف عليه حقًّا ونعرِفه يقينًا. أجل، فهو خالق كلّ شـيء، وهو الذي أخرج من كلّ شـيء ما لا يُحصَى من الثمر.

إذًا أَنْ تصيـر تلـك المعـادن ذهبًـا وألماسًـا وفضّـةً أمـرٌ من شـأنه أن يصفّـي العبـاد وينقيهـم ويجعلهـم أهلًا لدخـول الجنة، وفي هـذا المقام يقـول سـيدنا رسـول الله ﷺ: "**النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُـمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْـلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا**"[11]. فعُمَر العزيز الشـريف في الجاهلية هو عمر الوقور الجادّ المتواضـع المهيب العزيز في الإسلام، عمر الشديد صعب المراس الـذي يُرغِـم الآخريـن على ما يهـوى في الجاهليـة هو نفسـه عمر الذي يخفـض للنـاس جنـاح الـذّل تواضعًا، وهو هـو تجده عظيمًـا عزيزًا على الكفار والمجرمين، وكيفما كان معدن الشـخص في الجاهلية فهو كذلك في الإسـلام؛ لذا إذا ما رأينا إنسـانًا يتدفق حيوية ونشـاطًا وتوهُّجًا تلهفنا إلى دخوله في الإسلام؛ لأن العزيز في الجاهلية عزيز في الإسلام.

هـذا المعـدن هـو عنصـر الإنسـان يتناولـه الإسـلام فيَصهـره ويُعِدّه حتـى يصيّـره ذهبًـا خالصًـا، وهكـذا اسـتحال الصحابـي ذهبًـا خالصًـا، ثـم أخـذت تقلّ قيمة وعيار مَن جاء مِن بعد، فتدنوا بمرور الأيام من عيار ٢٢ إلى عيار ١٨، ١٧، ١٦.... حتى إن من المسـلمين في القرن العشـرين مـن تدنّـى عيـاره إلـى عيـار؛ أجل، فهـذا العصر شـاع فيه كلّ هـذا القدر من التدني والزيف.

إننا نُبتَلَى في هذه الدنيا لنتزكّى، وهو تعالى أعلم بما يزكّينا، فيبلونا به، حاشـا أن يفعل ذلك ليعلم منّا ما لم يكن يعلمه؛ بمعنى أنّه يبتلينا بأنفسـنا، والحق أننا نُبتلى بأنفسنا.

(١١) البخاري: الأنبياء، ١٩؛ مسلم: الفضائل، ١٩٩.

إنّنا لَنجاهد ونسعى لنتزكّى ونتطهّر، واتّبعنا المنهج وكلُّنا شوق وأمل أن يُعالَج مَن كان منّا حديدًا أو ذهبًا خامًا ليغدو ذهبًا خالصًا. أجل، إننا إذا ما قمنا بمثل هذا الضرب من المجاهدة يُظهِر ربّنا على أيدينا ما سبق في علمه سبحانه أزلًا، وبهذا نمتحن أنفسنا بأنفسنا ونقف على حقيقتنا بين يدي الله، والقرآن الكريم يبين هذا فيقول: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٢٤)، فإذا عرفت هذا فاعلم أنك تمتحن نفسك بنفسك، فالله تعالى حاشا أن يمتحننا ليعلم حالنا، بل الأمر على خلاف ذلك، أي إنَّه يكشف لك عن نفسك، ويمتحنك بنفسك، والله أعلم بالصواب.

العبادة والتعبّد

سؤال: بما أن الله لا يحتاج إلى عبادتنا فلماذا لا نقوم بعباداتنا كما يحلو لنا؟

الجواب: إن عبادة الله تعالى أمر مترتب على معرفته ﷻ، أي إن الإنسان يشاهد لوحات الجمال في هذا الكون ودلائل النظام فيه، ثم ينتقل إلى واضع النظام؛ ومَن يتأمل هذا الكون بدقّة وإمعان يرى أنه ما من شيء فيه وضع عبثًا أو دون نظام أو دون غاية، لذا يرى أن عليه أيضًا أن يتحرك ضمن هذا النظام.

ومن نظر إلى الوجود من زاوية الجمال يرَ جمالًا مُذهلًا وخارقًا بحيث لا يستطيع تخيل جمال أعظم منه، فمن جمال وجه الإنسان إلى جمال الأرض فالسماء فالنجوم، وأمام مثل هذا الجمال الرائع الذي يأخذ بالألباب ويسحر القلوب، لا بدَّ أنَّ به يُعرف ومن ورائه يُرى مالك هذا الملك وصاحب ذاك الجمال.

وسواء أكان هذا تأملًا آفاقيًّا أم تأملًا أنفسيًّا فإنه يملأ نفس الإنسان وروحه بالنشوة والفرح والإثارة فيغدو كطفل صغير يريد أن يثب ويقفز، ويطلق صرخات الفرح كلما رأى أجمل الأسماء (الأسماء الحسنى) وهي تلمع مثل فراشات مضيئة فوق أجمل الأفعال والإجراءات والتقديرات، فلا يملك الإنسان نفسه من الإعجاب والتقدير والتبجيل لهذه الصفات التي هي منبع كل خير وجمال، ويكاد الإنسان يغيب عن وعيه من الذهول والإجلال وهو بين يدي مالك الكون أجمع.

ويبدو كل شيء في الكون من زاوية أخرى وكأنه هُيِّئ وأُعِدَّ في مكان آخر ثم عُرض لخدمة الإنسان، فهناك نِعَم مقدمة له في عُلَب محفوظة أو على شكل ثمار وفواكه حتى بدت الأرض وكأنها مائدة عامرة بكل الأصناف، وعندما يمد الإنسان يده إلى هذه النعم يحس بمالكها الحقيقي ويزيده هذا الإحساس إعجابًا واندهاشًا ولذة أخرى، فلو عقل الطفل وهو يرضع من أمه -منبع الحنان- لأحس أن مثل هذا الغذاء المفيد جدًّا له كأنه مقدم لنجدته من عالم آخر، ولأحس أن هناك وراء مظاهر الأحداث جميعها مُنعمًا و رزّاقًا كريمًا، ولكان عليه آنذاك أن ينحني تعظيمًا وتبجيلًا له.

أجل، كل نعمة وكل إحسان يدل على المُنعِم المحسن، ويسوق إلى إجلاله وتوقيره، فأينما شاهدنا نعمةً أو جمالًا أو نظامًا وجبت العبودية لصاحب هذه النعم والجمال والنظام، أي متى ما جعلنا الله تعالى نحس بوجوده، فعلينا أن نشكره بالعبودية فورًا، ومن هنا يقول المعتزلة وكذلك الماتريدية بشروط: لو لم يُرسل الأنبياء ولم يقم أحد بإرشاد الإنسانية إلى الله لكانت الآيات والأدلة التي يزخر بها الكون كافيةً لمعرفة الإنسان بالله، ولكان الإنسان مكلفًا آنذاك بمعرفة الله، وهذه المعرفة تدفع الإنسان إلى تحري ما يرضي الله. ويمكن إيراد أمثلة عديدة على وجهة نظر الماتريدية، فمثلًا: نرى أن بعض المعاصرين للرسول ﷺ رغم أنهم نشؤوا بجوار الكعبة المملوءة بالأصنام والأوثان وما كان ثَمَّة مَن يُعلِّمهم حقائق التوحيد، فإنهم كانوا يحسون إحساس ذلك البدوي وقد قيل له: بم عرفتَ ربك؟ فقال: "البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسَماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما تدل على العليم القدير؟!" هذا قول بدوي لم يكن يرى في الصحراء سوى الرمال الممتدة أمامه، فكيف بغيره إذًا؟

جاء رسولنا بمفهوم سامٍ لإنقاذ البشرية، ولو جاز التعبير لقلنا: إنه كان إنسانًا فوق الإنسان، فقد وصل إلى إدراك المعنَى الحقيقي للكون قبل نبوته، وحدس وجود الله تعالى وبدأ بالبحث والتأمّل في غار "حراء" والتحنث أي التعبد فيه، ففي رواية للبخاري عن أمّنا خديجة ﵂ "أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يَتَعَبَّدُ فِي غَارِ "حِرَاء" وَأَنَّهُ لَمَ يَكُنْ يَنْزِلُ إِلَى مَكَّةَ إِلَّا لِلتَّزَوُّدِ بِالزَّادِ"[١٢]؛ وهذا يدل على أن الإنسان يستطيع بإدراكه اكتشاف بعض الأمور، ويسوقه هذا الاكتشاف إلى العبودية لله تعالى على نحوٍ ما.

وما قاله زيد بن عمرو بن نفيل وهو على فراش الموت يستحق التأمل، فقد كان زيدٌ عمَّ عمر بن الخطاب ﵁، وقبيل وفاته استدعى جميع أفراد عائلته وجمَعهم حوله وأخبرهم بما يعلمه من صفات النبي المنتظر، ولم يقدَّر له أن يرى رسولنا ﷺ، أي إنه بلغ بفرسه الشاطئ، ولم يتيسر له ركوب سفينة النبي، غير أن روحه بكلّ ذرّاتها تنسمت عبير رسولنا ﷺ فحدس الحقيقة الأحمدية بكل جوارحه، ولكنه لم يستطع أن يطلق اسمًا على ما أحس به؛ فعن عامر بن ربيعة ﵁ قال: "سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أُومن به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ، فإن طالتْ بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمتُ أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وإقراءه منه السلام، فردّ عليه السَّلامَ وترحم عليه"[١٣]، وكان يقول: "اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم"[١٤]. وهكذا يظهر أن هذا الضمير النقي لو لم يكن في مجتمع وثني لاستطاع بتأمل هذا الكون ونظامه الوصولَ إلى عبودية الله تعالى.

(١٢) البخاري: بدء الوحي، ١؛ مسلم: الإيمان، ٢٥٢؛ الترمذي: المناقب، ١٣.

(١٣) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٤٠.

(١٤) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٣٧.

فمعرفة الله تعالى تبدأ العبودية معها فورًا؛ أجل، فما دام هناك من ينعم علينا بكل هذه النعم فالعبودية موجودة أيضًا؛ لذا فقد وضع الله تعالى في فطرة الإنسان وفي قلبه شعورًا بالعبودية وإحساسًا بها، أي كما قال زيد: "اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم!"، والوحي السماوي هو وحده الذي يحدد ويبين الشكل الصحيح للعبودية ويحول بذلك دون انحرافها لتبقى في حدود الأوامر الإلهية؛ كأن الله تعالى يقول: إنني أنا الله وأنت عبدي، عرفتني بالنعم التي أنعمت بها عليك، وأنا سأعلّمك آداب العبودية التي تمثل بها بين يدي:

تتوضأ أولًا ثم لكي تجاهد نفسك تذكر أن الله ﷻ هو الأكبر، وأن كل ما سواه صغير ضعيف، ثم تعقد يديك أمامك إخباتًا لله، ثم تجتهد ما استطعت في الفهم لتظهر لهفتك لسمو روحك إلى حيث عرج سيد الأنبياء، ثم تركع شاكرًا، وكلما أخبتَّ في الركوع بلغتَ أعماقًا أخرى، ثم تسجد لتَبلغ الأعماقَ في التواضع، ثم ترفع لتستريح ثم تسجد السجدة الثانية وتكثر من الدعاء إذ "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**"(١٥)؛ وتتأمل الآية الكريمة: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢١٩/٢٦) أي يرى مكانك بين الساجدين؛ وبقدر قابليتك وانسجامك وتفاعلك مع جوّ السجود تسمو في معراجك وهو الغاية من الصلاة.

إذًا فالعبادة هي الإيمان بالله والمعرفة بالذات الإلهية ثم القيام بالعبودية إزاء هذه المعرفة بمحبة وإجلال وفي ظلِّ الهدي الربّاني وتحت أوامره، وما تقدَّم هو أحد وجوه هذه المسألة.إننا أمام معرفة ربنا لا ينبغي أن يصدر عنّا ما فيه طيش أو ما لا يليق، وعلينا أن نستنير بأنواره ﷺ في ظل إرشاد الآيات البينات نبتغي بذلك ما يرضي الله ﷻ.

(١٥) مسلم: الصلاة، ٤٢؛ أبو داود: الصلاة، ١٥٢.

وأمَّا المسألة الثانية فنقول: إن الإنسان بحاجة في الساحات كافَّة -تجاريةً كانت أم علميةً أم فنّيةً أم زراعيةً أم صناعيةً- إلى مرشد يتعلَّم منه، ولنفرض: أنَّ لكلٍّ منكم عملًا، فأحدكم عنده مصنع نسيج، وهذا عنده مصنع بلاستيك، وآخر له معرض تحف، ولنفرض أن هناك شخصًا يريد مصلحتنا لئلا نتعرض للخداع، ويعرف الأصول وأساليبها، فعهد إلينا أن ننجز أعمالنا بإتقان، ثم جمعنا ووقف أمامنا قائلًا: ''بوسعكم أن تقوموا بهذا العمل، فهو ضرورة وحاجة، ولتنفذوه بإتقان عليكم بالعنصر البشَري ورأس المال فاستثمروهما جيدًا، وعليكم بتدابير الاقتصاد وعدم الإسراف والعناية بكذا وكذا من الأمور''؛ فذرة من الإنصاف تحملنا على الاهتمام بنصائحه لا سيما أنه لا يروم من وراء إرشاده منفعة، فنصغي إلى نصائحه ونتأمل توجيهاته بعناية، وننظم أمورنا وفقها.

وهكذا الأمر في طاعاتنا وعباداتنا لله تعالى لا نفعل ما تمليه علينا أهواؤنا ورغباتنا بل نعمل وفق النظم والقوالب والهيئات الحاضرة في روح العروج التي يرشدنا إليها خالقنا ومعبودنا؛ وهكذا تحصل البركة في عباداتنا، وتكون كمثل سنبلة أنبتتْ سبْع سنابل، فمن يدري فلعلنا نلمس الزر الذي يفتح أمامنا أبواب الرحمة الإلهية عندما نقول ''الله أكبر''، ولعل أبواب الإلهام تفتح أمام أرواحنا آنذاك، ومن يدري فلعلّنا عندما نقرأ سورة الفاتحة نستعمل مفتاحًا سرّيًّا لفتح قفْل ذي شفرات سرّية، ومن يدري أي أبواب سرية تنفتح أمامنا في كل ركن من أركان الصلاة التي نؤدّيها.

أجل، بوسعنا أن نقول: إن الطرق جميعها ستنتظم وتستقيم وجميع الأبواب تنفتح حينما نسجد، وإن أَدْعِيَتَنا سترتفع بين يدي ربّنا وسنحاط آنذاك بالملائكة الكرام؛ ومن يستطيع أن ينكر حدوث كل هذا؟ إن المبلّغ الصادق ﷺ يخبرنا ببيانه البليغ النوراني عن هذا كلّه، إذًا فأفضل شكل

للعبادة هو الذي بيَّنَه لنا ربّنا؛ ذلك أن الله الذي خلق ماكِنة الإنسان أَدرَى بكيفية تشغيلها، وبطرق استخراج أفضل ثمرة منها سواء في سبيل الحياة الدنيا أو الآخرة؛ إذًا فمن خلق وصنع هذه الماكنة وهذا المعمل عمل "كَتَالُوجًا" لها ووضعه في موضع منها، فليُؤخذ هذا الكَتَالُوج بعين الاعتبار إن كان المطلوب إدارة هذه الماكنة إدارة عقلية وصحيحة، إذًا فالعبادة لا تؤدَّى كيفما اتفق، بل في حدود إرشادات وتعليمات رسولنا ﷺ، وعندئذ تؤدَّى العبادة في أفضل صورها، وهذه نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على أمة محمد ﷺ؛ لذا نقول: ذلك فضل الله، ونتضرع بدعاء رسولنا الكريم ﷺ ألا يكِلَنا ربّنا إلى أنفسنا طرفة عين.

تفاوت الناس في الإمكانيات

سؤال: هناك أشخاص أعطاهم الله كل شيء، الأموال الطائلة والسيارات الفارهة والقصور الفخمة والشرف الرفيع والصيت الذائع... بينما الآخرون يتضورون جوعًا وتصيبهم آلام وبلايا ومصائب وفقر وعلل. فيا ترى هل هؤلاء فاسدون والآخرون يحبهم الله حتى أغدق عليهم ما أغدق، بينما هؤلاء ينسحقون تحت وطأة أعباء الحياة؟

الجواب: مثل هذا السؤال لا يُسأل إلا من أجل الوصول إلى المعرفة، وإلا فإن السائل يكون آثمًا. ومن كان في ضيق فله أن يَسأل هذا السؤال من أجل الفهم لا الشكوى.

يعطي الله تعالى المال والدور والمراكب لمن يشاء، ويعطي الفقر وضيق اليد لمن يشاء. ولكن لا يمكن هنا إنكار دور بعض الأسباب كالظروف العائلية وغيرها، كما لا يمكن إنكار قابلية شخص ما وكياسته ودرايته في كسب المال وتنميته، وكذلك لا يمكن إنكار مدى تأثير معرفته بطرق الربح في الأحوال والشروط والظروف المحيطة به أيضًا. ومع هذا فقد لا يعطي الله تعالى المال لأشخاص مع وجود القابليات عندهم. ومع هذا فقد ورد في حديث ذي مغزًى عميق يخص موضوعنا عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**"[16]. وهذا له معنى فيما نحن بصدده.

(١٦) مسند الإمام أحمد: ١/٣٨٧.

ثم إن من الخطإ عد المال والجاه خيرًا مطلقًا. أجل، فالله ﷻ قد يعطي المال والرفاه والسعادة الدنيوية لمن يطلبها وقد لا يعطي، وسواء أعطى أم لم يعط فهو خير في كلتا الحالتين؛ فإن كنتَ إنسانًا صالحًا واستعملت المال المعطى لك في أمور الخير، فالمال هنا يُعد خيرًا. ولكن إن لم تكن إنسانًا صالحًا، بل كنت منحرفًا عن الصراط القويم فسواء أعطاك الله المال أو لم يعط فالوضع يكون سيّئًا بالنسبة لك.

أجل، إن كنت إنسانًا غيرَ مستقيم فالفقر يكون عندك وسيلةً إلى الكفر، لأنه يحرضك على رفع راية العصيان تجاه ربك. كما أنك إن كنت بعيدًا عن الاستقامة فمعنى هذا أنك لا تملك حياةً قلبيةً وروحيةً صحيحةً، لذا فإن الغنى سيكون لك مصيبةً وبلاءً ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٨). لقد خسر الكثيرون هذا الامتحان حتى اليوم؛ فكم من غني مع أنه يملك ثروةً كبيرةً لا يملك في قلبه شرارة نور واحدة بسبب جحوده. لذا فإن إعطاء الله تعالى المال والجاه لهؤلاء يعد "استدراجًا" أي وسيلةً لانحرافهم. ولكن هؤلاء استحقوا هذا لكونهم أماتوا حياتهم القلبية والروحية وقضوا على القابليات الفطرية التي وهبها الله تعالى لهم. من المناسب هنا ذكر هذا الحديث النبوي: "**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**"(١٧).

بينما لم يكن البراء -وهو شقيق أنس- ﷺ يملك طعامًا يأكله ولا دارًا يأوي إليها. كان يعيش على الكفاف. وكم من أشعث أغبر مثل البراء كانوا يوقرون ويُنظر إليهم كعظماء ويقيّمون حسب سعة قلوبهم وعمقها وعظمتها، ونور نفوسهم وضيائها. لذا وصفهم النبي ﷺ أنهم لو أقسموا على الله لأبرهم.

(١٧) الترمذي: المناقب، ٥٥.

إذًا فلا يمكن النظر إلى مجرد الفقر أو إلى مجرد الغنى على أنه مصيبة أو نعمة. فقد يكون الفقر حسب موقعه من أكبر نعم الله تعالى. وقد اختار الرسول ﷺ الفقر بإرادته فقال لعمر ﷺ المتألم من فقر الرسول ﷺ: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟"(١٨) وبينما كانت الثروات تسيل إلى خزينة بيت المال عاش الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فقيرًا، لا يتناول إلا ما يسد رمقه فقط ولم يطلب المزيد.

ولكن هناك نوع من الفقر -أعاذنا الله منه- يكاد يكون كفرًا. فمثلًا لو كان هذا السؤال صادرًا لا عن قصد معرفة وعلم، بل تعبيرًا عن السخط، من فم جاحد، يعد هذا جحودًا لنِعَم الله تعالى وشكوًى منه وعصيانًا... أي عُدّ كفرًا. إذًا فالفقر يعد نعمةً أحيانًا وأحيانًا أخرى نقمةً، أي أن الأصل في الموضوع هو الصدى الذي يلقاه في القلب، أو كما قال الشاعر:

"يا رب! كل ما يأتي منك مقبول،
إن كان خلعةً... أو كان كفنًا،
إن كان وردةً... أو شوكًا،
نعمتك ومحنتك... كلاهما حسن".

وفي شرقيّ الأناضول هناك مثل يقول "كل ما جاء منك جميل، سواء أكان هذا أم ذاك".

الإنسان إن كان مع الله فلا يضره أن يكون غنيًّا وأن يلبس فاخر الثياب، قد يبلغ مرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله، ولكن إن لم تكن للإنسان أي علاقة بالله تعالى فإن فقره يكون له خسرانًا في الدنيا وخسرانًا في الآخرة أيضًا. وكذلك إن كان الغني غافلًا عن الله تعالى فإنه وإن بدا سعيدًا في الدنيا فإن خسرانًا كبيرًا ينتظره في الآخرة.

(١٨) البخاري: تفسير سورة التحريم، ٢؛ مسلم: الطلاق، ٣١؛ مسند الإمام أحمد: ١٧٦/٣.

تكفّل الله بالرزق

سؤال: يقولون: إن الله تعالى تكفل بالرزق، فما لنا نرى أناسًا في بعض الدول يموتون من المجاعة التي استغرقت خمسين أو ستين يومًا؟

الجواب: تبيّن آيات في كتاب الله ﷻ أن الله تعالى تكفل للخلق جميعًا بالرزق، منها مثلًا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ٦/١١) و﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥٨/٥١).

أجل، فالرازق هو الله، وجميع آي القرآن في هذا تشير إلى أن الرزق في كفالة ربانية؛ فلا أحد يموت جوعًا، ولكن على الناس أن يعلموا أن الله تعالى إنّما تكفل بما يفي بحاجاتنا الضرورية من الرزق، أمَّا ما سوى ذلك فلم يتكفّل به سبحانه، هناك أشياء لا تعد من قبيل الرزق الذي تكفل الله به، فلو جعلها الإنسان رزقًا ضروريًّا له بإسرافه وسوء استعماله وسيّئ عاداته ثم فقدها فمات، فليس لنا أن نقول حينذاك: إن ذاك الإنسان مات لانقطاع الرزق.

هلموا بنا نضرب أمثلة يسيرة لذلك، مثلًا: مدمن الأفيون الذي اعتاد تعاطي الأفيون، لو حاولتَ ثَنْيَه عن ممارسة هذه العادة السيئة لجنّ وثارت ثائرته، وقد يموت إن بلغ إدمانه للمخدر مبلغه. أجل، يموت هذا الإنسان إذا ما حرم من الأفيون، لكن سبب موته إدمانه على الأفيون أوَّلًا، ثم إقلاعه عنه أخيرًا على نحوٍ لا يتناسب وطبيعتَه.

وهناك آخر اعتاد التدخين وأُشْرِبَ دمه بالنيكوتين، فلو أقلع هذا عن التدخين دون أن يسترشد بوصفة مناسبة لبدت على جسده بعض

الأعـراض، ربمـا تتـورم يده ورجلـه ووجهه، وعندهـا يقول لـه الأطباء: "لا يمكنـك الإقـلاع عـن التدخيـن بهـذه الصـورة، فمثل هـذا الانقطاع غيـر المناسـب ربما يؤدي إلـى حدوث بعض المضاعفـات"، ففي المثل "ترك العادات من المهلكات".

هناك عادات أخرى كتلك:

لو أنّ إنسانًا تعود على تناول كيلو من البروتينات يوميًّا، رغم أن حاجة الجسـد اليومية من البروتينات لا تزيد عن خمسـين جرامًا، أو لو أنه اعتاد أكل كيلـو فاكهـة وآخَـر من البقـلاوة وآخر من اللحم يوميًّـا ثم أقلـع عن تلك العادة فمن الممكن أن تصيبه الرعشة فيمرض ويعجز عن أن يستوي قائمًـا، أما لـو تناول معدله اليومي من الفاكهة "٥٠-١٠٠ جرام"، وتناول مثله من البروتينات أيضًا فتلك هي كفايته اليومية من الأغذية، بل قد تكفيه بضعة أيام، فهذا أمر مردّه إلى العادة.

وتدّخِر خلايا الجسم هذه الأطعمة شحومًا، فإذا عدِمَت الخلايا غذاءً جديدًا عمَدت إلى استخدام هذا المخزون شيئًا فشيئًا، فيتغذى به الجسم.

ومثـال ذلك أيضًا هؤلاء الذين يموتـون جوعًا هنا وهناك، فلو اقتصد هؤلاء فيما قدره لهم ربهم من الرزق لَحفِظ عليهم حياتهم، هب أنّ الله ﷻ رزق شخصًا كيسًا من القمح فاستهلكه في شهرين لظل سائر السنة جائعًا ثـم مـا يلبث أن يموت جوعًا، أمَّا إن اقتصـد فأكل كل يوم حفنةً من كيس القمح فلسوف يكفيه سنةً كاملةً، ولن يموت بالنظر للأسبَاب.

وهـذا يعنـي أنّ الناس لا يموتون فقـرًا أو جوعًا أو حرمانًا من الرزق، بـل يموتـون لأنهم اعتادوا تبذير ما رزقهم الله مما فيه كفايتهم أمدًا مديدًا، فأدمنت أجسـادهم هـذا فغدا تركهم لعاداتهم هـلاكًا لهم بمقتضى قوانين الشريعة الفطرية.

عالمية سيدنا محمد

(صلى الله عليه وسلم)

سؤال: يزعم بعض الناس أنّ رسالة سيدنا رسول الله ﷺ خاصة بعهده ومقصورة على العرب، فما قولكم في هذا؟

الجواب: لا دليل أو أمارة تثبت أنّ رسالة نبينا ﷺ خاصةٌ بعهده كما لا دليل على أنه ﷺ إنما أُرسل إلى العرب خاصّةً، بل إن الدلائل كلها تبرهن أنه ﷺ كان يصل ليلَه بنهاره طوال حياته السَّنيّة ليبلُغَ برسالته ما بلغ الليل والنهار.

نهض الإسكندر ليؤسّس دولةً تهيمن على العالم، ومثلَه فعل سيزار لروما والرومان، ومن بعده نابليون كذلك. لكن نبينا الكريم، جوهرَ الخَلق، وسيدَ الزمان والمكان ﷺ، عندما وجَّه أتباعه لفتح العالم كان يستهدف من ذلك إزالة العوائق من الطرق المؤدية إلى سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، ويستهدف من جهة أخرى توجيه البشرية -التي هي أشرف المخلوقات لكنها انقلبت رأسًا على عقب وهَوَتْ في أسفل سافلين- إلى الهدف الذي من أجله خلقها الله، ويستهدف أيضًا استرداد كرامة الإنسان المفقودة. وقد مدَّ ﷺ يده المباركة البيضاء لتحقيق هذه الغايات، فبلّغ رسالة ربه إلى كل شخص وكل بقعة بلغَها صوته، بصفته رسولًا يأتمر بأمر الله ويهتدي بهداه.

وإليكم بعضًا من دلائل عموم رسالته ﷺ:

١- لما كان رسول الله ﷺ بمكّة أمر بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فعرَّف سُفراءُ الهداية الأوائلُ كثيرًا من أهل الحبشة بالإسلام. نعم، كانت رحلتهم هجرةً في ظاهرها، بيد أن إسلام النجاشي ملك الحبشة ومن معه بسعيهم هناك ودعوتهم لَهو استجابة مُثلَى وإشارة أُولَى تبرهن أنه ﷺ رسول الله إلى الناس كافّةً.

٢- كان من الرعيل الأول في عصرِ الصحابة أجناسٌ مختلفة، فسيدنا بلال ﷺ حبشيّ، وسيدنا صهيب ﷺ روميّ، وسيدنا سلمان ﷺ فارسيّ، وآخرون من أعراق أخرى؛ تسنّموا مناصب رفيعةً أكثر من كثير من العرب وهم ليسوا بعرب، وهذا له مغزًى عميق؛ فهو يدلّنا على أن رسالة الإسلام رسالة عالمية.

٣- لحِق سراقة بن مالك رسول الله وصاحبه يوم الهجرة، وبشّره ﷺ بسِوارَيْ كسرى بن هرمز قبل فتح العراق بسنوات، وتلك إشارة منه ﷺ إلى أن رسالته ستبلغ بلاد فارس، بل إلى ضرورة تبليغ رسالته إلى هناك، وما طالَت بالبشارة مدّة بُعيد وفاته ﷺ حتى تحققت، ففُتحت العراق، ولبس سراقة سِوارَي كسرى.

٤- عن أُمّ حَرَام بنت مِلحان ﷺ -وهي خالة النبي ﷺ من الرضاع في رواية، وقيل من محارمه من جهة خالاته- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا فِي بَيْتِهَا، فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: "يَا رَسُولَ اللهِ مَا يُضْحِكُكَ؟" قَالَ: "**عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ...**"[١٩]، وهذه إشارة أخرى إلى أن الرسالة ستمخر عباب البحار، وتحققت هذه البشارة المباركة في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

(١٩) البخاري: الجهاد والسِّير، ٨؛ مسلم: الجهاد والسِّير، ٤٩.

٥- بشّر النبيُّ ﷺ صحابته ذات مرَّة بفتح مصر، وأن نور رسالته سيبلغها في عهدهم، وأوصاهم بأهلها: "**إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا** (أَوْ قَالَ: **ذِمَّةً وَصِهْرًا**)"[٢٠]، فهو ﷺ يعزز بذلك أواصر القربى التي كانت أمّنا مارية ﵂ وأمّنا هاجر زوجة سيدنا إبراهيم ﵇ أهمَّ وشائجها.

٦- لما كان النبي ﷺ يحفر مع صحابته الخندق بالرافعة والمعول والمجرفة، بشّرهم بفتح الحيرة وصنعاء ومدائن كسرى وبلاد الشام[٢١].

وبعد، فهل بقي لمدَّعٍ مستمسَك على أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب وحدهم أو بعهده فقط، أم أن علينا أن نعدّ هذه البلاد من الجزيرة العربية، وأن نسمّي أهل الحيرة والفرس والروم عربًا؟!

والأدلة من الكتاب والسنة على عموم رسالته كثيرة، منها:

١- يقول ﷺ: "**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**"[٢٢]، وفي رواية أخرى "**بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**"[٢٣]، ويتقوّى هذا بما جاء في تاريخ الطبري: أنَّ النبيّ ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم: "**إِنِّي بُعِثْتُ رَحْمَةً وَكَافَّةً فَأَدُّوا عَنِّي يَرْحَمْكُمُ اللهُ**"[٢٤].

٢- ولما جاء رسولَا كسرى قال لهما النبي ﷺ: "**قُولَا لَهُ: إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ مُلْكُ كِسْرَى**"[٢٥]، يشير بذلك إلى أن رسالته ستُخرِج العالم ومنه الفرس من الظلمات إلى النور.

(٢٠) مسلم: فضائل الصحابة ﵃، ٥٦.
(٢١) سنن النسائي: الجهاد، ٤٢؛ مسند الإمام أحمد: ٣٠٣/٤.
(٢٢) البخاري: التيمم، ١.
(٢٣) مسند الإمام أحمد: ٣٠٤/٣.
(٢٤) تاريخ الطبري: ٦٤٥/٢.
(٢٥) أبو نعيم: دلائل النبوة، ٣٤٨/١.

٣- وجّه النبيّ ﷺ أصحابه إلى بقاع العالم كافّة، فقبل فتح إسطنبول والأناضول بقرون أخبر أن الجيوش الفاتحة ستدُقُّ يومًا ما أبواب أوربا، فمدحهم وأميرَهم، ورغَّب في ذاك الفتح المبين، فقال: "**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ**"(٢٦).

أمَّا حديث القرآن عن هذا فبيّن جليّ، لا خفاء فيه ولا تأويل، فمثلًا:

١- ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سُورَةُ ص: ٨٧/٣٨). دليلٌ على أن نبينا ﷺ كُلّف بدعوة الناس كافّة.

٢- ﴿**لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٧٠/٣٦)، فالآية تقرّر هذه الحقيقة بأَبْيَن وأصرَح، ففيها أن رسالته ﷺ للخلق جميعًا، الإنس والجن، فمعارضتها بأي شكل كفر وجحود.

٣- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ سَبَأٍ: ٢٨/٣٤).

٤- ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٥٨/٧). فدلالة مثل هذه الآيات جليّة على أن الله أرسلَه للنّاس كافّة، فهو رسول الله إليهم جميعًا، إذًا لا معنى ألبتة لدعاوى لا أصلَ لها تحصر رسالته ﷺ بزمان ومكان ما، أو بعهده خاصة.

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم يتكلم عن الأنبياء الآخرين عليهم السلام وكيف أن دعوتهم كانت خاصة بأقوامهم، ليبيّن الفرق بين الأنبياء كافّة وبين رسول العالَمين ﷺ، فمثلًا قال عن نوح وهود وصالح عليهم السلام: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٥٩/٧)، ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾

(٢٦) مسند الإمام أحمد: ١٨٩٥٧.

(سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٦٥/٧)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧٣/٧).

وهكذا تحدث عن سيدنا لوط عليه السلام في الآية الثمانين من السورة نفسها، وعن سيدنا شعيب في الآية الخامسة والثمانين، ويكاد كلما ذكر الأنبياء السابقين يشير إلى أنهم إنما أُرسلوا إلى أقوامهم خاصةً، فلم يدع المسألة مبهمةً، بل أفصح عمن أُرسِل إلى قومه خاصّةً، ومن أُرسِل لهداية الناس كافّةً.

حقًّا لقد سمعت الأرض كلها برسالته ﷺ منذ أن بُعِث، فاستحسنها الناس جميعًا أيّما استحسان، وغدت حياةً للحياة بما تركَته من أثر طيب على مساحة كبيرة امتدت من بلاد المغرب حتى بلاد ما وراء النهر، فكثيرٌ من الدول الإسلامية امتثلَت قرونًا عدّة للتشريع الذي أنزله الله عليه ﷻ، فالمبادئ التي قدّمها للبشر تتفاعل مع الحياة على الدوام، وهي رائدة للفكر، مرشدة للعلوم، تبعث على البحث والتأمّل، حافظت على حيويتها وجدتها، فغدت منشودةً في كل مكان رغم ما مُنِيَت به من أعداء الإسلام منذ عصور من بغي واعتداء وتخريب، واليوم يُجمِع آلاف العلماء والمفكرين على أن عودة الإنسانية إلى ذاتها رهنٌ بالرُّوح والقِيَم النبوية، وهذا لا يُعَدّ دليلًا واحدًا فحسب على عالمية رسالته بل إنه بمنزلة آلاف الأدلة.

ودلَّت كتب السير والحديث على أنّ النبي ﷺ بعث بكتب إلى ملوك العالم؛ بدأت بهرقل عظيم الروم فالمقوقس عظيم القبط في مصر، وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة، ليبلّغ دعوته إلى العالم كافّةً، فعرّف ﷺ نفسه رسولًا للعالمين منذ أن دعا إلى الدين الحق حتى يومنا هذا، واستحسن الناس جميعًا مبادئ شريعته أيّما استحسان، فدلّ هذا على أن الله أرسلَه للنّاس كافّةً، فهو رسول الله إليهم جميعًا، فالمسألة قطعية الثبوت، ويبدو أن إثارة شبه جديدة حولها مصدره الحسدُ والحقد والغلّ ليس إلا.

حادثة تلقيح النخل

سؤال: يقول النبي ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ"[٢٧] وأومأ بإصبعه إلى فَمِه ﷺ، ولما أشار على أصحابه بترك تلقيح النخل فلم يُثمر قال: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ"[٢٨]، فكيف الجمع بين الحديثين؟

الجواب: لُبَابُ السؤال أن لدينا حديثين ظاهرهما التعارض:

الحديث الأول: "مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ"، أومأ ﷺ ذات مرة بإصبعه إلى فيه وقال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ". الحديث أخرجه أصحاب السنن كأبي داود وغيره عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، كان رضي الله عنه يكتب كل ما يتناثر من فمه الشريف ﷺ من دُرَر، فلا يفوته شيء، حتى إن أبا هريرة رضي الله عنه ذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان أكثر منه رواية: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب"[٢٩]، كان عبد الله بن عمرو بن العاص رجلًا زاهدًا متعبّدًا، اشتهر بالعبادة والطاعة، يقول رضي الله عنه: "أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ "وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ" فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ؟" قُلْتُ: "قَدْ قُلْتُهُ" قَالَ ﷺ: "إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ

(٢٧) أبو داود: العلم، ٣.

(٢٨) مسلم: الفضائل، ١٤٠.

(٢٩) البخاري: العلم، ٣٩.

مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ" فَقُلْتُ: "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ" قَالَ ﷺ: "**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**" قُلْتُ: "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ" قَالَ ﷺ: "**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ**" قُلْتُ: "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ" قَالَ ﷺ: "**لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**"[٣٠].

يمكن أن ندرك من قوله "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ" أنه بلغ في العبادة مبلغًا. أجل، فكان شخصًا ربّانيًّا في تقواه ورقّته وعبادته، وكان ﷺ أيضًا يقدُر كلام النبي ﷺ حقّ قدره، ولا يغادر صغيرةً منه ولا كبيرةً إلا سجّلها.

سبب ورود الحديث الأول: قال سيدنا عبد الله بن عمرو ﷺ: قالت لي قريش: تكتب عن رسول الله ﷺ وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر؟! فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: إن قريشًا تقول: تكتب عن رسول الله ﷺ وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر، قال: فأومأ إلى شفتيه، فقال ﷺ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِمَّا بَيْنَهُمَا إِلَّا حَقٌّ فَاكْتُبْ**"[٣١]. هذه هي الواقعة الأولى.

الواقعة الثانية: لما شرّف النبيّ ﷺ المدينة بقدومه، ورأى أهلَ المدينة يلقحون النخيل، قال: "**مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا**"[٣٢]، وفي رواية: "**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**"[٣٣]، لم يقل: "ليس للتلقيح أي فائدة"، بل أشار إلى أن هذا ليس مؤثّرًا حقيقيًّا. فترك أهل المدينة التلقيح، فلم يثمر النخيل في تلك السنة، ومن يدري فلعله كان من قضاء الله وقدره ألا يثمر النخيل في تلك السنة أُبِّر أو لم يؤبَّر، فقال النبي ﷺ بعدئذ: "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"[٣٤]،

(٣٠) البخاري: صيام، ٥٦.

(٣١) المستدرك للحاكم: ١/١٨٦.

(٣٢) مسلم: الفضائل، ١٣٩؛ مسند الإمام أحمد: ١/١٦٢.

(٣٣) مسلم: الفضائل، ١٣٩.

(٣٤) مسلم: الفضائل، ١٣٩.

ولا يصح أن نفهم من هذا "أنتم تعلمون أفضل مني"، فيحتمل أنه ﷺ قصد بقوله "**مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا**" هذا المعنى: أنتم تلقحون النخيل، لكن ذلك لا يُغني عن قدر الله ومشيئته شيئًا. تعلمون أن بعض النباتات تثمر سنة وسنة، فمن الممكن أن اتَّفق أن النخيل لم يثمر في تلك السنة، فلحظ النبي ﷺ أحوالهم، وعلِم أنهم لم يستوعبوا حكمة كلامه، فقال ﷺ: "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"، فكأنه يريد بهذا أنه لم يحِنْ بعدُ فهمُ أمرٍ جَلَلٍ لا يتأتى استيعابه إلا بعد تجربة وجدانية.

وإليكم حادثةً أُخرى: كانوا في الجاهلية ينسبون إلى الأسباب تأثيرًا حقيقيًا، فمثلًا جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أنهم كانوا يقولون: "**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**"، يعتقدون أن النجم الفلاني إذا ما طلع تداعى السحاب فأمطرت السماء.

وفي هذا قال رسول الله ﷺ: "**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**" قَالُوا: **اَللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**. قَالَ ﷺ: "**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: "مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ" فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ؛ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: "بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا" فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**"[٣٥].

أجل، كانت هناك زمرة تنسب إنزال المطر إلى الله كما تنسب كلَّ خير إليه سبحانه وتلك هي الزمرة المؤمنة، وهناك زمرة أخرى ترى المطر وغيره من صنع الأسباب، وتلك هي الزمرة الكافرة.

إن إسناد التأثير الحقيقي إلى الأسباب اعتقاد سائد جدًّا في الجاهلية؛ فكان لا بدّ من استئصال شأفة هذا الاعتقاد، وإظهار أن الأمر كلّه لله، وأن الله متفرد بربوبيته كما أنه متفرد بألوهيته.

(٣٥) البخاري، الأذان، ١٥٤؛ مسلم، الإيمان، ١٢٥.

أجـل، فكمـا أن الله تعالى لا إله إلا هو وحده لا شـريك له، فهو غنيّ كذلـك عـن المعين في أفعاله، فهو سـبحانه مُنزِل السـحاب طلـع نجم أم أَفـل، ولكنه ﷻ جعل لنزول المطر أَسـبابًا أو أمارات تُقارن نزولَه ليتأهب النـاس لـه، وربما لا ينزل المطـر وإن وُجِدتْ، فالأمر بيده سـبحانه. هدَم النبيُّ ﷺ بقوله هذا كلَّ سـبب أسـند إليه الناس وقوع الأشـياء والحوادث، ليعلموا أنْ ليس للأسباب تأثير حقيقيّ، وأنّ الأمر كلَّه لله مسبِّب الأسباب، ولتتعلَّق قلوبهم بمن هو على كلّ شيء قدير ﷻ.

واقعة أخرى: قال النبي ﷺ: "**لَا عَدْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ**" فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُـولَ اللهِ فَمَا بَـالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَـاءُ فَيُخَالِطُهَا الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ فَيُجْرِبُهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟**"[٣٦].

فـلا نفي هنا لسـريان المرض، وإلا لما حـذّر النبي ﷺ أصحابه بقوله: "**إِذَا سَـمِعْتُمْ بِـهِ** (الوباء) **بِأَرْضٍ فَـلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِـأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**"[٣٧]؛ لم يكن النبي ﷺ لينفي وجود الأسـباب بل كان يفنّد المنطق الجاهليّ، فبينما يعلّمهم ﷺ أنّ لوجود الأسباب حكمة، كان يشير إلى أن الجراثيم والحُمَات تأتي بالمرض، بيد أن هذا لا يعني أنّ الأسباب هـي كل شـيء، فالأخذ بالأسـباب وظيفة، والإيمان بـأن الأمر بيد الله هو عيـن التوحيـد، وأحكم النبـي ﷺ بيانه لهذه المسـألة الدقيقة بقولـه "**فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟**"، فحكم ببطلان التسلسل والدور، أي هذا من ذاك وذاك من سـابقه، فالأول ممن؟ وهو ما جعلهم يقولون في النهاية "الله"؛ إذًا الأمور التـي نراهـا تجري وَفقا للأسـباب إنما تجري بأمـر الله وإرادته من بدايتها إلى نهايتها، فالله هو خالق كل شـيء، فبهذا أتى النبي ﷺ بُنيانَ الشـرك مـع الله في ربوبيته من القواعد، وأهاب بالأرواح أن تُشرِك، ولفت الأنظار إلى قضيةٍ بالغة الأهميّة.

(٣٦) البخاري: الطب، ٥٢؛ مسلم: الآداب، ١٠١.

(٣٧) البخاري: الطب، ٢٩.

وعودةً إلى مسألة التلقيح... انتشرت في الجاهليّة عقيدة معينة في أمر التلقيح، فبه يؤتي النخل أُكُلَه أضعافًا مضاعفةً، وبدونه لا يثمر؛ وفي هذا شرك خفي، إذ مردّ إثمار النخل هو التلقيح لا غير، فاستهدف النبي ﷺ هدْمَ تلك العقيدة الباطلة، ليبيّن لهم بأسلوبٍ تَعيه عقولهم أنَّ الأسباب إن هي إلا حُجُبٌ رفيعة أمام عزة الله وعظمته، فلقَّنهم درسًا أوَّلًا، فلما كشفوا عن نظرة تغاير ما قصده قال لهم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

أتراه يمدحهم حقيقةً أم أنه يومئ إلى أنهم لم يستطيعوا أن يستوعبوا حقيقةَ ما بيَّن كما أبان؟ فتأمل.

مسألة ثالثة: كلام النبيّ ﷺ كلّه بل حياته كلّها إرشاد لأمته؛ فلو باشر النبيّ ﷺ توجيه أصحابه في حياتهم كلّها دِقّها وجِلّها بصورة التشريع، فقال مثلًا: هكذا صبّوا الماء، وطوّفوا به المائدة ثم اشربوا، وإذا فعلتم كذا فافعلوه هكذا، وإذا قطعتم شجرًا فاقطعوه من أسفل، وإذا ضربتم على الحديد فاضربوا عليه هكذا، وضعوه في الفرن هكذا... فلو علّمهم كل شيء وأمرهم به لكان عليهم وعلينا أن نمتثل تلك الأوامر إلى يوم القيامة امتثالَنا للأوامر التشريعية الأخرى، بيد أنه ﷺ زادهم بقوله هذا ثقة بأنفسهم لِيُثْرُوا معارفهم وتجاربهم وممارساتهم؛ فالسنبلة ربما تغدو مائة حبة أو عشرًا كما نبّأه علام الغيوب، فبالتجربة والتلقيح ربما تبلغ أترجة حجم الشمام أو البِطّيخ.

مسألة رابعة في منتهى الأهميّة: إنَّ الله أوكل إلى الإنسان أمر التدخل في الكون، فهو ﷺ خليفته ﷻ في الأرض، فبهذا كان للإنسان الأمر والتصرف في الأشياء التي خلقها الله له على مستوى "الشرط العادي"، وتلك هي حكمة منح الإرادة للإنسان، بل إنها مقتضَى خلافته ﷻ في الأرض، فلو لم يكِل النبيّ ﷺ الأمر إليهم فقيّدهم في الشريعة الفطرية

كما التشريعية لقالوا: إنما امتثلنا الأمر فلقَّحنا، أو النهي فتركنا؛ فتجف حينئذ منابع العلم والمعرفة البشرية وتذهب التجارب والخبرات هباءً منثورًا، ويتعارض تشريعٌ جاء بتعليم الفطرة مع الفطرة نفسها.

إن أقواله ﷺ وتشريعاته باقية إلى يوم القيامة؛ لذا كان يذكر ﷺ أمورًا قطعيةً لا تدع طريقًا للأوهام وخطأ الأفهام في المستقبل، ليرجع الناس جميعًا دائمًا بطمأنينة تامَّة إلى هذا المنهل العذب المورود، فكان لا بد أنه لا يخرج من فيه عليه الصلاة والسلام إلا الحق، ولم يخرج إلا الحق.

مسألة خامسة: كان النبي ﷺ إنسانًا، فهو أعلم بمعنى حرية الإنسان، فالإنسان إن لم يكن حرًّا لم يعُد إنسانًا، فلا يطلق لفظ إنسان بتمامه على أسير أو سجين، وليس من الإنسانية أيضًا أن يرزح الإنسان تحت ذلّ القهر وتسلط الكفرة الفجرة بأن يعيش حياته كما يرتضونها له، لا كما يرتضيها هو، أجارنا الله من إنسانية كهذه، وأصلح من رضي بمثلها.

أجل، فالإنسان إنسان بإرادته، فهي خِصّيصَى غاية في الأهمية، وهي كبذرة واراها الثرى، وما إن تتوارَى حتى يُولَد من مدفنها شجرة عظيمة، فنبيّنا ﷺ لم يقيد إرادتهم، بل جرَّبهم أوَّلًا، ثم قال: خيرٌ لكم أن تفعلوا ما كنتم تفعلون لتنالوا ثمرة إرادتكم وينال الذين يأتون بعدكم ثمرات إراداتهم.

وجَلَا تلك الحقيقةَ بقوله "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"، وما يقول إلا حقًّا، عليه أكمل التحايا وأتمّ التسليمات.

حكمة تعدد زوجات النبي

(صلى الله عليه وسلم)

سؤال: **هل لكم أن تبيّنوا لنا حِكمة تعدد أزواج الرسول ﷺ ؟**

الجواب: بدايةً إن من يلوكون هذا الموضوع بأفواههم ما اطّلعوا ولا تفكّروا، فلو بذلوا بعض الجهد في قراءة شيء من "المغازي والسير" لَما أسَفُّوا بطرح سؤال كهذا.

سُئلتُ عن هذا مرارًا، وحاولت الإجابة بأشياء -لا أدري هل كانت إجابةً تامةً أو ناقصةً- سأكرّر هنا ما أتذكره منها:

لزواج سيد المرسلين ﷺ وجوه عدّة، منها ما يتعلق بذاته الكريمة ﷺ، وأهدافٌ ومقاصد لوحظت في زواجه، وحاجات وضروريات، وأخيرًا أحوال خاصة تتعلق بأزواجه ﷺ ويجب تنفيذها... وإليكم تحليلَ هذه الأمور واحدة تلو الأخرى:

نتناول أوّلًا الموضوع وعلاقتَه بتلك الشخصية الزكية، اعلم أولًا أنَّ صاحب المقام الرفيع ﷺ لم يتزوج حتى بلغ الخامسة والعشرين، فإذا لاحظت ظروف ذلك البلد الحار وأنَّه نَبت وشبَّ على العفة والطهر وأن الجميع سلّم بعفته في الماضي والحاضر، علمتَ أن العفة عنده سجية وخلق لا ينفكّ عنه، وتلك دلالة على قوة إرادته وتحكُّمه في نفسه. ولو أن لديه أدنى ميل في هذا لسارع أعداؤه قديمًا وحديثًا إلى إشاعة ذلك في العالم كله، لكن لا أحد منهم تجرَّأ على فرية كهذه رغم أنهم اتهموه بأكاذيبهم وافتروا عليه.

كان زواجه الأول ﷺ في الخامسة والعشرين بسيدة لها منزلة كبيرة عند الله وعند رسوله، لكنّ عمرها أربعون سنة وتزوجت مرتين قبلَه، وكان عمر هذا العش السعيد ثلاثًا وعشرين سنة، ففي السنة الثامنة من البعثة توفّيتْ ﵂، وتركَت وراءها حزنًا عميقًا، فرجع الرسول ﷺ وحيدًا كما كان. أجل، فبعد ثلاث وعشرين سنة من حياة سعيدة مع أسرته عاد ليعيش عَزَبًا زمنًا وكان في الثالثة والخمسين؛ ثم تزوج الأُخريات في سنٍّ تضعف فيه الرغبة، فدعوى اتباع الشهوات بعدئذ لا سيما في ذلك البلد الحارّ تجافٍ لا منطق فيه ولا إنصاف.

مسألة أخرى ترِدُ هنا: ما علاقة النبوة بتعدُّد الزوجات؟ وأودُّ أن أشير بإيجاز إلى الآتي:

١- من يحاول استغلالَ هذا الأمر إمَّا ممن لا يلتزم بأيّ دين وأي مبدإ أخلاقيّ، فلا حقَّ له في نقد أمرٍ كهذا أصلًا، إذ لا وزن لمبادئ الأخلاق عنده ولا يتحرج من العلاقات الآثمة وإن كثُرت؛ وإمَّا أنّه من أهل الكتاب لكن ديدنه النقد والهجوم الجائر بحقدٍ وبلا تأمل كافٍ؛ فيذكر في الكتب المقدسة التي يؤمن بها أن عدَّةَ أنبياء عظام تزوجوا عددًا من النساء، ومنهم سليمان وداود ﵉، فعلى أتباع هؤلاء الأنبياء أن ينصفوا في هذا الأمر، فالرسول ﷺ لم يكن أوَّلَهم في ذلك، وتعدُّد الزوجات ليس أمرًا منافيًا للنبوَّة وجوهرِها، فللتعدُّد إذا ما قُرِن بالنبوّة فوائد عدَّة ستُذكَر.

أجل، فالأنبياء يبلّغون التشريع، ومنه أحكام الأسرة، وللأسرة وجوه عدّة يلفُّها الستر والخفاء، فلا تطّلع عليها إلا الزوجة، ولا بد من معرفة أحكام تلك الوجوه صراحةً دون لجوء إلى كنايات قد يعسر معها الفهم والاستنباط، فكان تعدُّد الزوجات ضروريًّا للأنبياء ليبلّغْن عنهم، وليحملْنَ عبء الإرشاد والتبليغ في قضايا المرأة، فقيامهن بهذه المهمة ضرورة تقتضيها النبوّة ووظيفة النبيّ والتشريع الخاصّ بالمرأة.

٢- وفي هذا المقام حِكَم تخصّ أزواجه وحدهنّ ﷺ:

أ- لما تفاوتت أعمارهن، فكانت منهن الشابّة والكهلة والعجوز، ولكل مرحلة أحكامها، اتخذ الرسول ﷺ منهن طريقًا إلى تطبيق الأحكام الخاصّة بكلّ مرحلة.

ب- لما كان أزواجه الطاهرات رضي الله عنهن من قبائل شتَّى، نشأت مودّة راسخة متينة بين تلك القبائل، ثم بينها وبينه ﷺ، فغدا الرسول ﷺ عندهم واحدًا منهم، فاجتمع له عندهم اتّباعه على دينه ومشاعر ذوي القربى الفطريّة.

ج- قامت كلٌّ منهنّ بتبليغ الرسالة إلى قبيلتها في حياته ﷺ ومِن بعده، فكلٌّ منهنّ حلقة في سلسلة تبليغ الرسالة الأحمديّة ما ظهر منها وما بطن إلى أفراد قبيلتها كافّة، فعنهنّ أخذت تلك القبائل القرآن وتفسيره والحديث واطّلعت على روح الدين.

د- بنى النبيُّ الأكمل ﷺ بزواجِه منهنّ أواصرَ قُربى مع جمّ غفير من عرب الجزيرة، وغدا ضيفًا كريمًا في بيوتات القبائل، وكانت تلك بوابّة نفذوا منها إليه ليتعلموا منه أمور دينهم عن كثب، وبهذا كان كلّ من هذه القبائل يشعر ويفخر بقربه منه ﷺ، وهذا ما شعر به مثلًا بنو مخزوم قبيلة أُمِّنا أم سلمة رضي الله عنها وبنو أميّة قبيلة أمّنا أم حبيبة رضي الله عنها.

٣- ما سبق عامّ وبعضُه يشمل سائر الأنبياء، وإليكم ظروف زواجه بأمّهات المؤمنين واحدة واحدة:

أجل، سنرى هنا أنَّ منطق البشر سيهون كالتراب عند هذه الشخصية السامقة المؤيدة بالوحي، وأن عقل البشر سيركع أمام هذه الفطانة العظمى.

أ- السيدة خديجة بنت خويلد ﵂ هي زوجته الأولى، أكبر منه بخمسة عشر عامًا، كان هذا مثالًا نادرًا وأسوةً لكل زواج، بقي ﷺ وفيًّا صادقًا معها طوال حياتها، ولطالما كان يذكرها بالخير والمودّة بعد وفاتها.

ولما توفيت بقي بعدها زمنًا بلا زواج، رغم أن له منها أيتامًا، تحمّل مؤونتهن ورعايتهن، وأصبح لهن الأب والأمّ، هب أنّا فرضنا المستحيل أَفهذا هو سلوك من هو مغرَمٌ بالنساء؟

ب- زوجته الثانية -ولا نلتزم بالتسلسل- هي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق أقربِ مَن صحبه ونصرَه وكابد معه ﵂. كان زواجه ﷺ من بنته أثمن هدية منه إليه ﵂، فسيحظى بهذا الزواج شرفَ القرابة الباقية يوم ينقطع كل نسب وسبب وصِهر إلا نسبَه وسببَه وصِهرَه ﷺ.

أجل، لقد أصبحت عائشة الصدِّيقة وأبو بكر الصدّيق ﵂ وجهًا ناصعًا لقرابةٍ نبوية قرّبت بينهما وبين الرسول ﷺ حسًّا ومعنًى.

أوتيت ﵂ ذكاءً نادرًا وفطرةً خالصةً، فهي مهيَّأة فطريًّا لترث الدعوة النبوية، وقد برهنت حياتها بعد زواجها من الرسول ومسيرتها الدعويّة بعد وفاته ﷺ أنها حقًّا أهلٌ لأن تكون زوجًا للرسول دون من سواه، فتجدها محدِّثةً عظيمة حينًا، ومفسرةً كبيرةً أو فقيهةً جليلة القدر حينًا آخر، فهي بفهمها وفقهها النادر تمثِّل الرسالة الأحمدية ظاهرًا وباطنًا، وهذا يفسِّر رؤيَا زواجه بها ﷺ، فما شعرت نفسها قبل أن يُعَكَّر صفو فطرتها إلا وهي في بيت النبوة.

نال أبو بكر الصديق ﵁ بهذه المصاهرة منزلةً شريفةً رفيعةً، أمَّا هي ﵂ فوجدتها فرصةً للتدريب والتأهيل لتطوّرِ قابلياتها واستعداداتها فتصبح في طليعة طلاب الرسول ﷺ، ثم تغدو في عالم النساء أكبر مرشدة مبلِّغة، فهي في بيت النبوة زوجة وطالبة.

ج- الزوجة الثالثة -ولا نلتزم بالتسلسل- هي أم سلمة المخزوميّة ﵂، من أوائل من أسلم من النساء، ولما اشتدّ الأمر على المسلمين بمكة هاجرت إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وكانت في طليعة الصفوف آنذاك.

تحمَّلت مع زوجها أبي سلمة المشاقَّ في هذه الرحلات المُضْنِية، وكان أبو سلمة ليس كمثله إنسان في عينها، كابد معها ما في مراحل الدعوة من آلام ومشاقّ، وتُوفِّي عنها في المدينة المنورة ولها منه خمسة أطفال، أشفق الشيخانِ على أرملة وحيدة تعيش الضيق والضَّنك مع أطفالها، فسارعا إلى خِطبتها، فأبَت؛ فما من أحدٍ يقوم عندها مقام زوجها أبي سلمة، ثم خطبها رسول الله ﷺ، حيث إن امرأة فاضلة نسيبة من أشرف القبائل ضحَّت بكلِّ شيء في سبيل دينها بلا تردّد، ما كان لها أن تُترك بلا راعٍ، بل لا بُدَّ من الأخذ بيدها، فخطبته ﷺ لها عون وغَوث. أجل، فالرسولُ ﷺ منذ شبابِه كان يساعد اليتيم وذا الفاقة والحاجة، فزواجه منها يحقق تلك الغاية وَفقًا لظروف ذلك العهد.

أمُّ سلمة كعائشة أوتيتْ ذكاءً وفطنة، وهي مؤهلة لمقام المرشدة المبلِّغة، فامتدَّت إليها يد الشفقة والرحمة لتعتني بها، وقُبِلتْ طالبةً في مدرسة العلم والإرشاد ليشكرها عالَم النساء، وإلا فما تفسير زواجه ﷺ في الستين من عمره بأرملة ولها خمسة أطفال أخذ على عاتقه عبء رعايتهم، فهيهات هيهات أن يَجُوز عقلًا تفسيرُه بالشهوة.

د- ومن أزواجه أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان ﵂، بنتُ رجل كان قبل أن يسلم رمزًا للكفر ضد الرسول ورسالته. وهي مِن أوائل مَنْ أسلم، وفي طليعة المسلمين، هاجرَتْ إلى الحبشة إِثْرَ الضيق والضَّنْك، فأغمَّها تنصّرُ زوجِها هناك ثم وفاته، فهي امرأة حلَّ بها ما حلّ من المصائب والنكبات، وكان الصحابة حينئذ قلّة فقراء ومعظمهم يعاني

من شظف العيش، فماذا بوسع أمّ حبيبة أن تفعل وتتصرّف؟ أفتتنصر ليغيثها النصارى أم تعود إلى وكر الكفر في بيت والدها أم تستجدي هذا وذاك؟ ما كان لسيدةٍ فاضلةٍ تقيّةٍ نسيبةٍ من أنبل البيوت وأغنى العوائل أن تسلُكَ أيًّا من تلك السبل، فلا شيء يسعف أمرها ويطبّب سِقامها سوى أن تمتدّ إليها يدُ الرسولِ ﷺ، فتزوّج ﷺ أم حبيبة التي ضحّت أيّما تضحية في سبيل دينها، فاغتربت عن وطنها وباتت حائرةً في أمرها بين الحبش ومفجوعة بردّة زوجها ثم وفاته؛ أفيُنتقد زواجٌ كهذا أم يُعزَّز وينتصَر له بوصفه رمزًا للشفقة ممن أُرسلَ رحمةً للعالمين؟

وبالإضافة إلى هذا فهي -كغيرها من أمّهات المؤمنين- كان بوسعها تقديمُ شيءٍ كثيرٍ للمسلمين والمسلمات من العلم والعرفان، فقُبِلتْ زوجةً وطالبةً في بيت النبوة.

وأتاح هذا الزواجُ لأبي سفيان وعائلتِه زيارةَ بيت النبوّة بلا حَرَج، وتبدّلتْ نظرتُهم وخَفَّ غَلْواءُ عداوتهم للإسلام، بل إنّ الأمويين جميعًا تأثّروا بذلك، وكانت في تلك العائلة عصبية مقيتة وعنف على المسلمين وشدّة، فلانت عريكتها وغدت مهيَّأةً لقبول كلِّ خير.

هـ- زينب بنت جحش ﵂ واحدة ممن آواهنّ إليه بيت النبوة السعيد، نسيبة شريفة مرهفة الحسّ والمشاعر جدًّا، تجمعها بسلطان الأنبياء ﷺ قرابة، نشأت قرب رسول الله ﷺ، وعندما خطبها لزيد ﵁ تردّد أهلها بادئ الأمر، وعرَّضوا برغبتهم فيه ﷺ، فلمّا رأوا عزيمته ﷺ رضوا بزيد بن حارثة ﵁.

كان زيدٌ رقيقًا في يومٍ من الأيام أي كان في جملة العبيد فأعتقه الرسول ﷺ، وكان إصرار الرسول ﷺ على هذا الزواج لتأسيس المساواة بين الناس وترسيخها، واتّخذ من أقاربه جسرًا لبلوغ هذا الأمر الشاقّ،

ولكن سيدتنا زينب كانت ذات فطرة سامقة ولم يكن هذا الزواج عندها سوى طاعة أمر، فلم يكن يبدو أن هذا الزواج يعمر طويلًا، وما عاد على زيد بشيء سوى العذاب والألم.

وأخيرًا عرَضت مسألة الطلاق، وبينما الرسول ﷺ يسعى ليدوم الزواج، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الزواج منها، إنّه ابتلاء عسير مرير، إذ إنَّ عليه أن يفعل ما لم يفعله الأقدمون، أي إنَّ عليه أن يعلن الحرب على العادات القديمة والتقاليد المستعصية، وهذا نضال عسير، ولولا أنه أمر الله لما كان له أن يتمّ، فقام تملؤه مشاعر الاستغراق في العبودية ليمتثل أمرًا ما أشقَّه على العفيف الطيّب، قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: "وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٣٧)"[٣٨]. أجل، لقد شقّ عليه هذا الزواج كلّ تلك المشقّة.

أما الحكمة الإلهية فأرادت أن تُدخِل هذه السيدة الطاهرة الجليلة القدْر إلى بيت النبوة لتتسلح بالعلم والعرفان، وتؤدي وظيفتها في الإرشاد والتبليغ، وهذا ما كان، فبعدها تجلَّى في حياتها كلّها دقّ الأمور وجلّها مما ينبغي أن تكون عليه أمّهات المؤمنين.

كان أهل الجاهلية يعدّون الابن بالتبني ابنًا حقيقةً، وزوجتَه زوجةَ الابن؛ فلما أراد الله إبطال هذه العادة الجاهلية بدأ بنبيّه ﷺ أوَّلًا؛ فإذا قلتَ لشخصٍ: يا بُني، فليس معناه أنه ابنك حقيقةً ولا زوجته زوجة ابنك.

وزواجه ﷺ بزينب رضي الله عنها فيه قضايا كثيرة يمكن ذكرها، ونكتفي بهذا لئلّا يتجاوز موضوع إجابة لسؤال حده، آملًا تناوله في شكل مستقل ومفصل.

(٣٨) البخاري: التوحيد، ٢٢؛ مسلم: الإيمان، ٢٨٨.

و- من اللائي تشرفن بالانتساب إلى بيت النبوة جويرية بنت الحارث ﵂، أُسِرَت يوم أن غزا المسلمون قبيلتها المشركة، نال كبرياءَها وعزةَ نفسها ما نالهما، فهي نسيبة من أشراف قبيلتها، ويوم أن جيء بها إلى الرسول ﷺ كانت قد امتلأت غيظًا وعداوةً للمسلمين، وحلَّ صاحبُ الفطنة العظمى ﷺ تلك العقدة بأيسرَ من شرب كوب ماء بارد.

عقد الرسول ﷺ على جويرية ﵂ فحازت مقام أم المؤمنين، ومكانةً قدسيّةً لدى الصحابة، وأُشرِب قلبها وأفئدة قبيلتها بحب الإسلام لما أرسل الصحابة ما في أيديهم من سبي قبيلتها فأعتقوهم بعد أن بلغهم زواج رسول الله ﷺ منها قائلين: "أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"(٣٩).

كان زواجه ﷺ هذا وقد ناهز الستين عامًا حلًّا لمعضلات كثيرة برمية واحدة، فعمّت وسادت نسائم الصلح والسِّلم أجواء كانت مشحونةً بالقتال.

ز- السيدة صفية بنت حُيَيّ ﵂ ممن حظينَ بهذا الشرف، كانت بنتَ رأس يهود خيبر، قُتِل أبوها وأخوها وزوجها في معركة خيبر وأُسرت قبيلتها، كاد قلبها يشتعل حقدًا طلبًا للثأر، فلما تزوجها الرسول ﷺ إذا بها تغدو أمّ المؤمنين، وتسمع الصحابة ينادونها: يا أمَّنا... يا أمَّنا، فبخلقه العظيم ﷺ صارت ترى فخرها الأعظم أنها زوجته ﷺ، فانطفأت الأحقاد وتلاشت رغبة الثأر، وأصبحت جسرًا يصل كثيرًا من اليهود بالرسول ﷺ ليعرفوه عن كَثَب، فلانت قلوبهم، فالله الذي يخلق من شيء واحد أشياء كثيرةً، ولِفِعاله حِكَم لا تُحصَى، قد جعل في هذا الزواج خيرًا كثيرًا وبركة.

إنني أرى من الصواب أن نقول: بهذا الزواج لقّن رسول الله ﷺ أمّتَه درسًا في كشف سرائر الأعداء وخباياهم؛ أجل، ففي زواج نساء من الأمم الأخرى فائدة جليلة في النفوذ إلى سرائر هذه الأمم ومكاشفتها، بشرط صون أسرارنا لئلا تُفشَى للأعداء.

(٣٩) أبو داود: كتاب العتق، ٢؛ المستدرك للحاكم: ٢٨/٤.

ح- أمّ المؤمنين سودة ﵂ كانت ممن حظين بهذا الشرف أيضًا، وهي من طليعة المسلمين، ومن المهاجرين إلى الحبشة مع زوجها، فلما توفي وجدت نفسها وحيدةً مثل سيدتنا أمّ حبيبة، فواساها الرسول ﷺ وسلّها من بؤسِ الوحدة وصارَ لها أنيسًا، ولا رغبة لهذه السيدة العظيمة من الدنيا إلا الموت وهي زوجة لرسول الله ﷺ.

قس على ذلك بقية أزواجه ﷺ... كما ظهر أن لزواج الرسول ﷺ حِكَمًا ومصالحَ كثيرةً، وليس للنوازع النفسانية فيه يد. فمن حِكمه عقد أواصر قربى مع اثنين أصبَحَا من الخلفاء الراشدين، وكذا ما تتمتع به أزواجه من أهليّة وقابليّة، وتزوج -كما رأينا- لحِكَم ومصالح أخرى فتحمَّل أعباءً كبيرةً.

انظر جهده وعدله ﷺ في نفقته على هذا العدد من النساء من مسكن وملبس ومأكل ومشرب، وانظر دقته في معاملتهنّ الخاصّة ورعايته لهذا بحزمٍ وكمالَ عدله فيه، وسدَّه لِما قد يطرأ من مشكلات بينهن، وحلَّه ما وقعَ منها بكل سهولة؛ كل هذا دليل على أنه نبي، وكما قال جورج برنارد شو: "إنه ﷺ لو كان الآن بيننا لحلَّ مشاكل العالم كلّه بسهولة كما يحتسي كوبًا من الشاي".

ونحن نعلم علم اليقين مشقة تحمّل أسرة من زوجة وولد أو ولدين؛ فعلينا أن ننحني إجلالًا لهذا النبيّ العظيم ﷺ فهو يدير بنجاح لا نظير له وبتناغم ووئام كبير بيتًا فيه زوجات من بيئات ومشارب وثقافات أسرية متنوّعة.

أمَّا أنّ عدد أزواجه ﷺ أكثرُ من العدد المباح لأمته فهو تشريع خاص. أجل، إنه تشريع خاص قد نعلم أو لا نعلم كثيرًا من حِكَمه ومنافعه، فقد أُذِن له أوَّلًا بالزواج بلا عدد، ثم حُدَّ ذلك بحدود فلم يحلّ له الزواج من بعد.

عذرًا، فقد أطلتُ، ولكنها ضرورة، فالموضوع ذو أهميّة.